

سلسلة دبلوماسية مكافحة الأوبئة

أزمة عالمية بدون حل عالمي

أكتوبر 2020

القوة الاقتصادية في العالم إلى الدول الواقعة في منطقتي المحيطين الهندي والهادئ.

قال الكاتب الإيطالي كلاوديو ماجريس إن العالم القديم ينتهي والعالم الجديد لم يولد بعد. إنها "فترة الانتقال" أي حقبة من الغموض وعدم اليقين. لقد أثر وباء الكوفيد-19 على الدبلوماسية، والتي هي بحسب تعريف الدبلوماسي البريطاني السير إرنست ساتو "استخدام الذكاء والبراعة في تسيير العلاقات الرسمية بين حكومات الدول المستقلة... أو بعبارة أكثر إيجازاً تصريف الأمور بين الدول بوسائل سلمية." ويضيف هارولد نيكولسون، وهو دبلوماسي بريطاني آخر، من محور تركيز الدبلوماسية ليكون إدارة التفاوض، وطريقته، وفن الدبلوماسي، ومهارته أو مهارتها.

كل هذه الجوانب أو الأبعاد التقليدية المختلفة للدبلوماسية تأثرت بالفيروس. فالدبلوماسية وجهاً لوجه تقلصت، وأدوار السفارات تعززت. ولكن من ناحية ثانية فإن التأقلم مع الأوضاع المتغيرة هو جانب رئيس من عمل الدبلوماسيين منذ بزوغ الدبلوماسية.

التأقلم مع تغير الظروف

فوجئ الجميع بفيروس الكوفيد-19، واقتضى الوضع الارتجال والبحث عن حلول. ولا يرجع ذلك إلى أننا لم نكن نعرف أن شيئاً من هذا القبيل قد يحدث؛ لأنه كانت هناك تنبؤات عنه في الماضي. ولكن عندما حدث، فإننا هوننا من شأن الخطر. وعندما تبين حجم المشكلة فيما بعد، كانت المهمة الأولى للسفارات هي اتخاذ تدابير على المستوى المحلي لحماية العاملين فيها ومواصلة عملها المعتاد بقدر الإمكان. وتحولت إعادة الموظفين غير الأساسيين أو المعرضين للخطر في السفارة وتدوير الباقي على الإدارات، والتباعد الاجتماعي وتدابير النظافة الصحية، وإعادة تنظيم العمل بسبب تعذر عقد اجتماعات مباشرة وجهاً لوجه، لتصبح الوضع الطبيعي.

وكانت بعض الدول أفضل حالاً من غيرها، ولا سيما تلك التي كان لديها شركاء تعتمد عليهم، مثلما هو الحال مع أعضاء الاتحاد الأوروبي. فقد دعموا بعضهم بعض عند الاقتضاء، بدءاً من تبادل المعلومات إلى التعاون في إعادة مواطني دولهم.

الهدفان المبدئيان للدبلوماسية الأسبانية كانا: الهدف الأول هو إعادة 25,000 مواطن أسباني عالقين في الخارج؛ والهدف الثاني هو أن أسبانيا باعتبارها مدافعاً قوياً عن المؤسسات متعددة الأطراف دافعت باستمرار عن ضرورة إيجاد حل عالمي

السفير هورهي ديسكجار

السفير الأسباني الأسبق إلى المغرب والفايكان والولايات المتحدة الأمريكية



مع التعرض لمزايا وعيوب الدبلوماسية الرقمية، تشير هذه النظرة التحليلية من أكاديمية الإمارات الدبلوماسية إلى أنه في حين أن العمل عن بُعد هو التغير الأبرز الذي حدث خلال هذه الفترة فإن الوسائل الافتراضية لا تتلائم مع الدبلوماسية متعددة الأطراف، وتتشدد على أن العامل البشري والقرب المكاني لا بديل عنهما لممارسة الدبلوماسية بكفاءة.

يُقال إن الفيروسات هي أخبار سيئة في صورة بروتينات! لقد قلب فيروس الكوفيد-19 نظام حياتنا من نواحي عديدة، وأحدث تأثيرات هائلة في الاقتصاد والعولمة والشؤون الجيوسياسية. وكذلك الحال أيضاً في الدبلوماسية. عندما كان تشوان لاي وزيراً للخارجية في الصين في عهد ماو تسي تونغ، وسُئل عن الثورة الفرنسية التي حدثت في 1789، فإنه أجاب إجابته المشهورة بأنه يعتقد أنه لا يزال من المبكر للغاية الحكم على تأثيرها وتبعاتها. وربما يُقال الشيء ذاته عن الوباء الحالي، ولكن يُمكن طرح بعض الأفكار بحذر.

هذه أزمة عالمية دون استجابة عالمية، وربما هي الأزمة الأولى منذ 1945 التي تفتقر إلى القيادة الأمريكية والتنسيق متعدد الأطراف في ضوء الانقسام في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بسبب التنافس والصراع بين القوى العظمى. ولهذا السبب لجأ المواطنون الذين يشعرون بالخوف إلى دولهم الوطنية طلباً للحماية وستخرج الدول منفردة من هذه الأزمة بصلاحيات أقوى، وسيواجه أكثر ارتفاعاً على الحدود وبحظر على دخول المهاجرين.

في ذات الوقت، تسارعت وتيرة التوجهات العالمية التي برزت قبل الأزمة وهي: الانسحاب الأمريكي، والأزمة في أوروبا، و"صعود باقي الدول" بقيادة الصين. نحن نعيش في اللحظات الأخيرة من عُمر الدورة الجيوسياسية متعددة الأطراف التي بدأت في 1945؛ أي نهاية العالم الذي تقوده الدول الغربية وبزوغ فجر مشهد جيوسياسي متعدد الأطراف مع انتقال مركز

للأزمة، وعمل الدبلوماسيون الأسبان على تعزيز التعاون في الجاهزية والبحوث.

التأقلم مع الظروف المتغيرة هو أحد السمات الأساسية للدبلوماسية المتميز. ولما كانت هناك قيود مفروضة على الاتصال والاقتراب الشخصي، تسارعت وتيرة التحول إلى الدبلوماسية الرقمية. وحدث هذا التحول على أربعة مستويات: المستوى الأول هو أن 65% من العاملين في وزارة الخارجية الأسبانية تحولوا إلى العمل من منازلهم على أجهزة الكمبيوتر؛ والمستوى الثاني هو أن رسائل البريد الإلكتروني، وهي أسرع من غيرها، حلت محل البرقيات الدبلوماسية التقليدية (والتي يتم إرسالها عادة مرتين في اليوم)؛ والمستوى الثالث هو الزيادة التي حدثت في استخدام شبكات التواصل الاجتماعي ولا سيما الواتس آب، دون الإخلال باشتراطات أمن المعلومات؛ والمستوى الرابع هو الاستخدام واسع النطاق لتقنية مؤتمرات الفيديو في الاجتماعات الكبيرة.

وأناحت هذه الأدوات تنظيم اجتماعات شهرية متواصلة بين سفراء دول الاتحاد الأوروبي وحتى اجتماعات عديدة بين وزراء الخارجية. على سبيل المثال، في أقل من أسبوع تم الترتيب لتنظيم اجتماع افتراضي بين عشرات الوزراء من دول المحيط الهادئ والدول الأفريقية وأمريكا الجنوبية لمناقشة مقترح أسباني كان من المقرر إدراجه في أجندة الأمم المتحدة. وكان سيصعب تنفيذ ذلك في تلك الفترة الزمنية القصيرة إذا كان تم اللجوء إلى الأساليب التقليدية. وبالمثل، استخدم السفراء المنصات الافتراضية للتواصل مع وزراء دولهم وغيرهم من المسؤولين في ديوان الوزارة.

وكان العمل عن بُعد لمراعاة اشتراطات التباعد الاجتماعي هو التغير الأبرز في مجال الدبلوماسية في تلك الفترة. وهذا لا يعني أن الدبلوماسيين يمكن الاستغناء عنهم، بل على النقيض من ذلك فقد أعاد فيروس الكوفيد-19 التأكيد على أهمية الدبلوماسيين المقيمين. فقد نفذوا خلال هذه الأزمة خدمات قنصلية هامة ومنها إرسال المعلومات إلى المواطنين العالقين، وإعادتهم، وترتيب رحلات الطيران العارض عند الضرورة... الخ.

ولكن الوسائل الافتراضية لا تصلح لتنفيذ أنشطة الدبلوماسية متعددة الأطراف، والتي يتيح فيها التفاعل وجهاً لوجه بين المفاوضين والمحدثات الجانبية والنقاش أثناء احتساء القهوة، المجال للمناورة وفي نهاية المطاف التوصل لحلول وسطى. ليس من اليسير إقامة روابط ودية مع دبلوماسي آخر على مسافة آلاف الكيلومترات.

«أؤيد دعوة المفكر الأمريكي جوزيف ناي للعمل مع الآخرين» بدلاً من المعادلة الصفيرية القائمة على "العمل على حساب الآخرين".»

البُعد الإنساني والقُرب المكاني لا بديل عنهما لممارسة الدبلوماسية بكفاءة. في بعض الدول، كان الوجود الفعلي للدبلوماسيين عنصراً رئيسياً في الحصول على التجهيزات الطبية الضرورية في ظل المنافسة مع الدول الأخرى، والتي تحتاج كلها إلى المنتجات ذاتها لمحاربة الوباء. ويصدق هذا القول تماماً على سفارتي أسبانيا في الهند، فيما يتعلق بالأدوية، وفي الصين، فيما يتعلق بالكمادات وأجهزة التنفس والقفازات والملابس الطبية والنظارات وغيرها. وفي العديد من الحالات، كان السفير يوقع بنفسه على العقود.

من اليسير أن تلقي باللائمة على الموظفين العموميين وتركز على جوانب النقص الحتمية في عملهم أثناء الأزمات. غير أن الدبلوماسيين لعبوا دوراً حيوياً في محاولة حشد المجتمع الدولي لإيجاد حل، وأعتقد أن المستقبل القريب يتطلب استثماراً أكبر في الدبلوماسية. في هذه الأزمة تحولت الدول إلى الاهتمام بشؤونها الداخلية، والعولمة تصدعت، والتضليل المعلوماتي تفشى، والمنظمات متعددة الأطراف عانت، وسلسل الإمداد اضطربت، والعلاقات لا بد من ترميمها.

«من اليسير أن تلقي باللائمة على الموظفين العموميين وتركز على جوانب النقص الحتمية في عملهم أثناء الأزمات، ولكن الدبلوماسيين لعبوا دوراً حيوياً في محاولة حشد المجتمع الدولي لإيجاد حل.»

أؤيد دعوة المفكر الأمريكي جوزيف ناي "للعمل مع الآخرين" بدلاً من المعادلة الصفيرية القائمة على "العمل على حساب الآخرين". وفي جميع الأحوال لا بد من بُعد دبلوماسي قوي ومرن في فترة إعادة البناء بعد انتهاء أزمة الوباء.

الدبلوماسيون وجودوا ليبقوا، وهذه أخبار سارة!